

الصدقة عند إخوان الصفا

للأستاذ ثابت عيد

المعتزلة في العصر الأول^(١).

وورد في الكتاب نفسه أن أبا حيان التوحيدي (المتوفى سنة ٤٠٠ هجرية)، عندما سُئل عن مذهب زيد بن رفاعه، أحد كبار مفكري هذه الجماعة، قال: "لا يُنسب إلى شيء"^(٢).

ولعل هذا القول يتفق وما جاء في "رسائل إخوان الصفاء"، حيث يقولون: "ينبغي لإخواننا، أيدهم الله تعالى، أن لا يُعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا، ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها"^(٣).

أما النقد في العصر الحديث، فلم يكونوا أكثر اتفاقاً على أصل هذه الجماعة، ومذهب أصحابها. فجورجي زيدان (المتوفى سنة ١٩١٤ ميلادية) قد نسبهم إلى المعتزلة في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية"^(٤) وكتب العلامة

١- نشأة إخوان الصفا :

ظهرت جماعة إخوان الصفا في القرن الرابع الهجري، أي في العصر العباسي الثالث. وقد كان منشأ هذه الجماعة في مدينة البصرة بالعراق. كانت مدينة البصرة وقتئذ مركز العلم والثقافة في العالم الإسلامي، وفيها نشأ الاعتزال، والصوفية، كما كان بها مدرسة نحوية معروفة.

وقد اختلف النقاد قديماً وحديثاً

في أصل هذه الجماعة، ومذهب أعضائها. فمن المؤرخين القدماء الذين عالجوا هذا الموضوع جمال الدين القفطي (المتوفى سنة ٦٤٦ هجرية)، حيث ذكر في كتابه "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" متحدثاً عن رسائل إخوان الصفا: "... فقوم قالوا: هي من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، ... وقال آخرون: هي تصنيف بعض متكلمي

المصري أحمد أمين (المتوفى سنة ١٩٤٥م) في الجزء الثاني من كتابه "ظهر الإسلام"، يقول: "إن لهذه الجماعة ميولاً شيعية ولكن نراهم ... يُنكرون نظرية المهدي المنتظر، مع العلم بأنها أساس من أسس الشيعة. فكيف يكونون شيعة، وهم يُنكرون ذلك" (٥).

أما رأي جورج زيدان بأن هذه الجماعة تنتمي إلى المعتزلة، فسببه هو أن المعتزلة كانوا يحاولون التوفيق بين الدين والفلسفة، واستخدام الفلسفة في الدفاع عن الدين. ولكن يوحنا قمير يقول معلقاً على هذا الرأي: "ما كان تحكيم العقل في شؤون الدين مقصوراً على المعتزلة، بل كل من غني بالفلسفة، وتصدى لشؤون الدين، حكّم العقل، ومزج الفلسفة بالدين" (٦).

كذلك فقد أخطأ أحمد أمين عندما لم يُفرّق بين فرق الشيعة المختلفة، واكتفى بقوله إن لهذه الجماعة ميولاً شيعية. ذلك أن نظرية المهدي المنتظر، كما يوضح الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل"، لم يؤمن بها جميع فرق

الشيعة (٧).

وقد ذهب المستشرق هنري كوربان في كتابه "تاريخ الفلسفة الإسلامية" إلى القول بأنهم من الإسماعيلية، حيث يقول: "لم يكن إخوان الصفا جماعة ألف بين قلوبهم المذهب الشيعي وحسب، بل كانوا جماعة فكرية ذات نزعة إسماعيلية خاصة" (٨).

واتفق مع هنري كوربان، الدكتور علي سامي النشار في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام"، حيث يقول: "ولا شك أن رسائل إخوان الصفا هي إسماعيلية ... تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية، وتنتشر فيها الآراء الباطنية" (٩).

أما عن تأثير رسائل إخوان الصفا في مفكرَي الإسلام، فيقول المستشرق دي بور في كتابه "تاريخ الفلسفة في الإسلام": "إن آراء إخوان الصفا ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي، كالباطنية، والإسماعيلية، والحشاشين،

والدروز. وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفا^(١٠). كذلك فإن ابن سينا (المتوفى سنة ١٠٣٧م) قد تأثر كثيرًا برسائل إخوان الصفا. وقد أشار ماجد فخري إلى ذلك في كتابه "تاريخ الفلسفة الإسلامية"، حيث يقول: "إن العاملين الرئيسيين اللذين أثرا في تكون ابن سينا الفكري ... هما: رسائل إخوان الصفا، ومؤلفات الفارابي"^(١١).

يمكننا أن نستنتج من هذا العرض الوجيز لآراء النقاد، ووجهات نظر المؤرخين، أن جماعة إخوان الصفا كانت إسماعيلية الأصل والميل، وأنها تركت أثرًا بعيد المدى على كل من جاء بعدها من مؤلفين وفلاسفة.

ولكن هذا لم يمنع من ظهور بعض النقاد الذين اتهموا أعضاء هذه الجماعة بالسطحية، والفشل في الوصول إلى ما أرادوا الوصول إليه. ونحن نذكر ما قاله اثنان من هؤلاء

النقاد. الأول هو أبو سليمان المنطقي، وكان معاصرًا لإخوان الصفا، وقد وصفه أحمد أمين في كتابه "ظهر الإسلام" بقوله: "... كان أبو سليمان شخصية ممتازة ... وفي ظني أنه أقدر من ابن سينا، والفارابي، وابن رشد، وأمثالهم، وأن له ميزة عليهم، هي اعتماده على تفكيره، أكثر من اعتماده على النقل"^(١٢).

لقد اتهم أبو سليمان المنطقي إخوان الصفا بأنهم "ظنوا ما لا يكون، ولا يمكن، ولا يُستطاع". ثم يشرح لنا قوله هذا الذي نقله لنا القفطي في كتابه "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، حيث يقول: "ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة ... والموسيقا ... والمنطق ... في الشريعة، وأن يربطوا الشريعة في الفلسفة، وهذا مرام دونه حدّد"^(١٣). ثم يشير المنطقي إلى أن المعتزلة، الذين كانوا "أحد أنيابا ... وأعظم أقدارًا ... من إخوان الصفا، قد فشلوا في محاولتهم ربط الفلسفة بالدين، فكيف ينجح في الوصول إلى هذا الهدف من

هو أقل شأنًا، وأصغر قدرًا من المعتزلة^(١٤)؟

أما الناقد الثاني، فهو معاصر لنا، وهو المستشرق مونتجومري وات، الذي كتب في كتابه "الإسلام - الجزء الثاني" يقول: "لقد تأثر العلماء الأوروبيون في القرن التاسع عشر برسائل إخوان الصفا الاثنَين والخمسين تأثرًا كبيرًا ... ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت أن علم هذه الجماعة على قدر من السطحية"^(١٥). والواقع أن القول بسطحيتهم قد يكون فيه شيء من الصحة، خاصة إذا قارنا رسائلهم بأعمال المعتزلة وكتاباتهم، مع ملاحظة بعض الخلافات الجوهرية بين مبادئ المعتزلة، وفلسفة إخوان الصفا. فالمعتزلة مثلاً قد سخروا الفلسفة في الدفاع عن الإسلام، ودخلوا في جدال عنيف مع أصحاب الديانات الأخرى، وألف مفكروهم الكتب للرد على أهل الديانات الأخرى، كالجاحظ (توفي سنة ٢٥٥ هجرية) الذي كتب "رسالة في الرد على النصارى". أما إخوان

الصفا، فلم يناظروا أصحاب الديانات الأخرى، بل إنهم ذهبوا إلى القول بأن "دين الأنبياء دين واحد، ومسلّكهم جميعًا مسلّك واحد، ومقصدهم مقصد واحد، وغرض واحد، وإن اختلفت شرائعهم"^(١٦).

٢- أسلوب إخوان الصفا :

يتميز أسلوب إخوان الصفا في الكتابة بالسلاسة والوضوح، وقد ابتعدوا عن الغموض والتعقيد، وتحاشوا التكلف والسجع، واختاروا لغة سهلة بسيطة يستطيع القارئ العادي أن يفهمها بلا عسر ومشقة. يقول الدكتور زكي مبارك في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع" عن سبب اختيارهم هذه اللغة الواضحة السهلة، إن: "كتابها أرادوا أن يُفهموا الجماهير ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية"^(١٧). ولعل الشيء الوحيد الذي قد يأخذه القارئ عليهم هو إطنابهم المعيب الذي يظهر أحيانًا في رسائلهم، وهو العيب نفسه الذي يؤخذ على أسلوب التوحيدي الذي كان معاصرًا لهم.

٣- الصداقة والشعور بالانتماء:

كان إخوان الصفا جماعة سرية، لها أهداف وأغراض سياسية مختلفة. وكان على أعضائها أن يتعاونوا، ويتماسكوا، في سبيل تحقيق أهدافهم، والوصول إلى غاياتهم. لقد جمع بين أفراد هذه الجماعة فلسفة واحدة، وهدف واحد، فأدى ذلك إلى ترابطهم، وتآلفهم. ولكن هذا الترابط، وتلك الألفة، لم يكونا من أجل الترابط والألفة، ولكنهما كانا ترابط وألفة أفراد لهم هدف مشترك، وفلسفة واحدة. وجملة القول في ذلك أن الإيمان بالأفكار نفسها، والافتتاع بفلسفة واحدة، يولدان شيئاً من الشعور بالانتماء لأصل واحد، والسعي لتحقيق هدف واحد. وهناك الكثير من الأمثلة التي توضح هذا المعنى، وتؤكد هذه الحقيقة، نذكر منها العلاقة بين المعتزلة، أو بين الشيعة. يقول أحمد أمين في الجزء الثالث من كتابه "ضحى الإسلام": "وكانت بين المعتزلة صلة متينة، وعطف، وتعاون، حتى كان التآلف بينهم مضرب الأمثال، فقد

كتب أبو محمد العلوي إلى أبي بكر الخوارزمي يقول إن اعتداده به اعتداد العلوي بالشيعة، والمعتزلي بالمعتزلي" (١٨).

٤- الصداقة في رسائل الإخوان:

عالج إخوان الصفا موضوع الصداقة في الرسالة الخامسة والأربعين، تحت عنوان "في كيفية معاشرة إخوان الصفا، وتعاون بعضهم مع بعض، وصدق الشفقة والمودة في الدين والدنيا جميعاً". وقد كان إخوان الصفا يخاطبون أتباعهم المنتشرين في مختلف الأمصار بأسلوب مهذب رقيق. يقول أحمد أمين في "ظهر الإسلام": "وكانوا عادة يتعاطفون مع القارئ، ويخاطبونه في رفق ودعة، ويخاطبونه دائماً بـ: يا أيها الأخ، أو يا أيها الأخ الفاضل، ويدعون له، ويحببونه في المطالعة" (١٩).

استهل إخوان الصفا رسالتهم في الصداقة بقولهم: "اعلم أيها الأخ، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنه ينبغي لإخواننا، أيدهم الله، حيث كانوا من

البلاد، أن يكون لهم مجلس خاص، يجتمعون فيه في أوقات معلومة، لا يدخلهم فيه غيرهم، يتذكرون فيه علومهم، ويتحاورون فيه أسرارهم^(٢٠).

أما مفهوم الصدّاقة عند إخوان الصفا، وتعريفهم للمودة والأخوة، فيمكننا أن نوضحه في النقاط التالية.

٥- ليس كل إنسان يستحق أن يكون صديقاً : يُحذر إخوان الصفا أتباعهم من الناس، ومن الغرباء، فليس كل إنسان يصلح أن يكون صديقاً، وليس كل شخص جديرًا بالثقة والمودة، بل إن القارئ قد يفهم من كلامهم أنهم يذهبون إلى القول بأن كل إنسان متهم، حتى تثبت براءته. ويطلق إخوان الصفا تحذيرهم هذا، ويكررونه، في مواضع مختلفة، يقولون بعد مقدمة الرسالة: "وينبغي لإخواننا، أيدهم الله، حيث كانوا في البلاد، إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً مجدداً، أو أخاً مستأنفاً، أن يعتبر أحواله، ويتعرف أخباره، ويُجرب أخلاقه، ويسأله عن مذهبه واعتقاده، ليعلم هل يصلح للصدّاقة،

وصفاء المودة، وحقيقة الأخوة، أم لا. لأن في الناس أقواماً، طبائعهم متغيرة، خارجة عن الاعتدال، وعاداتهم رديئة، مفسدة، ومذاهبهم جائرة"^(٢١).

ويطالب إخوان الصفا أتباعهم بأن يُفرّقوا بين الشجاع والجبان، والخير والشرير، والسخي والبخيل، إلى آخر هذه الصفات الحسنة، والعادات الحميدة، وما يقابلها من الصفات الرديئة، والعادات المستبحة. وبعد التفريق بين الناس، وفهم مبادئهم، ورؤية ما يتصفون به من الأخلاق الحسنة، أو الصفات القبيحة، يسهل على أتباع إخوان الصفا اتخاذ أصدقائهم من أصحاب الصفات الحسنة، والأخلاق المحمودة.

٦- الأخلاق المفسدة للصدّاقة: يشرح إخوان الصفا لأعضاء جماعتهم العادات والأخلاق التي يجب ألا يتصف بها الصديق، حيث يوضحون أن الغرور، والحقد، والبخل، والنفاق، والحسد، والفظاظة، والغدر، وكل ما شاكل هذه الصفات القبيحة، والأخلاق

الدينئة، مفسد للمودة، ومخالف لصفوة الأخوة، ومنغص للعيش، ومبغض للحياة. ويتضح من ذلك أن الصفات والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الصديق عند إخوان الصفا هي عكس ما قد استقبحوه من الأخلاق والعادات. وهذا يعني أنهم كانوا يستحسنون الكرم، والشجاعة، والتواضع، والصدق، والصراحة، والعذوبة، إلى آخر تلك الأخلاق الجميلة، والصفات الحميدة.

٧- الضدان لا يجتمعان إذا كان

هناك القبيح من العادات، والمستحسن من الصفات، فعلى أتباع إخوان الصفا أن يعلموا أن القبيح والمستحسن من الأخلاق لا يمكن الجمع بينهما. ذلك أن الضدين يتنافران، ولا يقوم بينهما انسجام. ويوضح إخوان الصفا ذلك بذكر مثال محدد، يذمون فيه صفة البخل بصورة غير مباشرة، حيث يقولون: "واعلم أن الصداقة لا تتم بين مختلفين بالطبع، لأن الضدين لا يجتمعان. مثال ذلك السخي والبخيل،

فإنهما متضادان في الطبع، فلا تتم بينهما الصداقة، ولا تصفو لهما المودة... لأنه إذا فعل السخي شيئاً مما يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف، رآه البخيل بصورة المضيع، قد فعل ما لا ينبغي، ولا يجوز. وإذا فعل البخيل بطبعه شيئاً من إمساك المال، مما يوجبه بخله، رآه السخي بصورة من قد أتى منكراً، لا يحسن فعله. فيصير ذلك سبباً لعيب كل واحد منهما على صاحبه، حتى يعتقد البخيل في السخي سُخف الرأي، وتضييع المال، وترك النظر في العواقب. ويعتقد السخي في البخيل النذالة، والدناءة، وصغر النفس، وقصور الهمة..." (٢٢) وقد اشتهرت العرب قديماً بزم البخل، وإمساك المال، واستحسان الجود، والسخاء. فألف الجاحظ كتابه المشهور "البخلاء"، حيث جمع فيه نوادرهم، وذكرَ نهمهم للكرم، في تعبير بارع، وأسلوب شائق. ونقل إلينا ابن نباتة المصري (المتوفى سنة ٧٦٨ هجرية) في كتابه "سرح العيون"

قول الجاحظ إن "البخل والجبن غريزة واحدة، يجمعهما سوء الظن بالله" (٢٣).
وأورد البيهقي في كتابه "المحاسن والمساوي" الحديث الشريف أنه: "لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً". وحكي عن الخليفة العباسي المأمون قوله: "الجود بذل الموجود، والبخل سوء الظن بالمعبود" (٢٤).

٨- الضدان المتجاذبان :

علينا أن نلاحظ أن قول إخوان الصفا بأن: "الصدقة لا تتم بين مختلفين بالطبع، لأن الضدين لا يجتمعان"، هو قول لا يتنافى مع المثل القائل بأن الضدين يتجاذبان، أو كما يقول الألمان: "Zwei Pole ziehen sich an" ذلك أن الضدين في قول إخوان الصفا هما صفتان لا يمكن الجمع بينهما، كالبخل والجود، أو الشجاعة والجبن، أو الكفر والإيمان. أما الضدان في القول الآخر، فهما صفتان لا تعارض بينهما، بل أنهما في أحيان كثيرة متجاذبتان، تكمّل كل منهما الأخرى، كأن ينجذب صاحب الشعر

الأسود إلى الشقراء. ومن ذلك ما حكاه ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة"، حيث يقول عن نفسه: "أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ... وإنني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، ولا تواتيني نفسي على سواها، ولا تحب غيره البتة. وهذا العارض بعينه عرض لأبي، رضي الله عنه" (٢٥).

ثم يذكر ابن حزم بعد ذلك أن خلفاء بني مروان كانوا يحبون الشقر من النساء (٢٦). ومن هنا يتضح أن هناك صفات لا يمكن الجمع بينها، كما أن هناك صفات أخرى يتجاذب بعضها بعضاً.

٩- الصديق الحق كنز لا يقدر

بمال : قدّم إخوان الصفا هنا تشبيهاً جميلاً، ومقارنة رائعة، حيث شبهوا من يبحث عن صديق بمن يبحث عن الغنى والمال. ثم أوضحوا أن هناك من قد يكون الله وهبه المقدرة على كسب المال والثروات، ولكنه لا يحسن حفظ

هذا المال، ولا يعرف السبيل إلى تقديره، وشكر الله عليه. ومثل هذا كمثل من منحه الله الصفات الكريمة، والأخلاق الحميدة، التي يستطيع بها اكتساب الأصدقاء، واتخاذ الإخوان، ولكنه لا يعرف كيف يحفظهم، ويقصر في مراعاة حقوقهم. يقول إخوان الصفا: "واعلم أن مثل اتخاذ الأصدقاء والإخوان كمثل اكتساب المال والذخائر، وذلك أن من الناس من يُفني عمره في طلب صديق موافق، فلا يجد، فمثله كمثل الذي يفني عمره في طلب جمع المال، فلا يقدر عليه. ومنهم من يكون مرزوقاً من كثرة المال، ومنهم من يُحسن أن يكسب المال، ولكن لا يُحسن أن يحفظه، فهكذا حكم اتخاذ الإخوان والأصدقاء، ومنهم من لا يُحسن حفظهم، ومراعاة أمورهم، فيصيرون إلى العداوة بعد الصداقة، وإلى المباغضة بعد المودة" (٢٧).

وفي هذا المعنى نفسه ذكر الجاحظ في كتابه "المحاسن والأضداد"

قول الشاعر:

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرة

ولكن إخوان النقات الذخائر (٢٨)
كذلك استشهد أبو حيان التوجيدي في كتابه "الصداقة والصدق" بقول الأعرابي إن: "أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم" (٢٩). وقد ورد في هذا الكتاب نفسه قولان آخران في ذلك المعنى. أما الأول، فهو قول فيلسوف سئل: "من أطول الناس سفرًا؟ فأجاب: من سافر في طلب صديق" (٣٠). والقول الثاني لرجل كان يقول: "أنا في طلب صديق منذ ثلاثين سنة، فلا أجد. فقليل له: لعلك في طلب صديق تأخذ منه شيئاً، ولو طلبت صديقاً تعطيه شيئاً، لوجدت" (٣١).

١٠- من هم إخوان الصدق؟

يوضح إخوان الصفا تصورهم للصديق الحق، فيقولون إن: "إخوان الصدق نصرة على دفع الأعداء... وأركان يُعتمد عليها عند الشدائد والبلوى، وظهر يُستند إليه عند المكاره في

السراء والضراء، وكنز مذخور ليوم الحاجة ... وسُـلِّم للصعود إلى المعالي، ووسيلة إلى القلوب عند طلب الشفاعات، وحصن حصين يُلتجأ إليه يوم الروع والفرعات. فإن غبت حفظوك، ... وإن رأوا عدوا لك، قمعوه. والواحد منهم كالشجرة المباركة، تدلت أغصانها إليك بثمرها، وأظلتك أوراقها بطيب رائحتها ... فإن ذكرت أعانك. وإن نسيت ذكرّك. يأمرك بالبر، ويسابقك إليه. ويُرغبك في الخير ... ويدلك عليه، ويبذل ماله ونفسه دونك" (٣٢).

وقد وصف ابن المقفع (١٠٦-١٤٢هـ) في كتابه "الأدب الكبير" إخوان الصدق بقوله: "اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا. هم زينة في الرخاء، وعدة في الشدة، ومعونة على خير المعاش والمعاد" (٣٣). وقال الجاحظ في رسالة "المعاد والمعاش" واصفاً الصديق: " ... فإنما هو شقيق روحك ... وتوأم عقلك" (٣٤). واستشهد التوحيدي في كتاب "الصدّاقة

والصديق" بقول أرسطاطاليس معلم الإسكندر، عندما سئل: "من الصديق؟ فقال: إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك" (٣٥).

١١- المحافظة على الأصدقاء وأداء

حقوقهم: ينصح إخوان الصفا أتباعهم في مختلف المدن والبلدان بأن يتمسكوا بالصديق، ولا يتخاذلوا في أداء حقوقه، ويكرّرون بذل هذه النصيحة لأتباعهم أكثر من مرة، مشيرين بذلك إلى أن حفظ الصديق أصعب من البحث عنه، واكتسابه، حيث يقولون: "فينبغي لك أن يكون أكثر كذك وعنايتك، بعد اتخاذ الصديق، حفظه، ومراعاة أمره، وأداء حقوقه" (٣٦). ثم يقولون في موضوع آخر، بعد أن ذكروا صفات الصديق الحق، وما يجب أن يتحلّى به من عادات وأخلاق: "فإذا أسعدك الله، يا أخي، بمن هذه صفته، فابذل له نفسك ومالك، وق (= أخم) عرضة بعرضك ... وأودعه شرك، وشاوره في أمرك، وداو برؤيته عينك، واجعل أنسك، إذا غاب عنك، ذكره، والفكر

في أمره. وإن هفا هفوة، فاغفرها له،
وإن زل زلة، فصغرها عنده ... واذكر
من سالف إحسانه عند إساعته، ليأنس
بك، ويأمن غائلتك، فإن ذلك أسلم لوده،
وأدوم لإخائه" (٣٧).

ولا شك أن عدم اتباع هذه
النصائح النبيلة، وتجاهل تلك المعاني
الجميلة، غالباً ما يؤدي إلى فقدان
الأصدقاء، وانقلاب صداقة الإخوان إلى
عداوة وخصام. ويهمننا في هذا المقام
أن نشير إلى ملاحظة مهمة، وهي
ضرورة تسامح الأصدقاء، عندما
يخطئ أحدهم، أو يحدث منه ما لا
ينبغي أن يحدث. لقد عبّر إخوان الصفا
عن هذا المعنى بقولهم: "إن هفا
(الصديق) هفوة، فاغفرها له، وإن زل
زلة، فصغرها عنده" (٣٨). ولعل أشهر
ما قيل في هذا المعنى قول الشاعر
بشار بن برد، الفارسي الأصل،
والمتوفى سنة ١٦٧ هجرية، حيث
يقول:

إذا كُنتَ في كُلِّ الأمورِ مُعَاتِباً
صديقَكَ، لم تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

فَعِشْ واحداً، أو صِلْ أخاك، فإنَّهُ
مقارِفُ ذَنْبٍ تارة، ومجانِبُه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كُلَّها
كفَى المرءُ نبلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِيهِ (٣٩)
وقد نقل إلينا أبو حيان التوحيدي
بعض ما قاله الشعراء في هذا المعنى،
حيث ذكر في كتابه "الصدقة
والصديق" قول الشاعر:
وأغْمِضْ للصَّدِيقِ عَنِ الْمَسَاوِي
مَخَافَةَ أَنْ تَعِيشَ بِلا صَدِيقٍ (٤٠).

وقول شاعر ثانٍ:
فَلَا تَقْطَعْ أَخاً مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ
فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الْكَرِيمُ (٤١).
وقول ثالث:

إذا ما أتت من صاحب لك زلةً
فكن أنت مُحْتالاً لزلته عذراً (٤٢).
وورد في الكتاب نفسه قول
الشاعر:

إذا العُضُوُّ لَمْ يُؤْلَمْكَ، إِلَّا قَطَعَتْهُ
قَعَدَتْ، فَمَا أَبْقَيْتَ لَحْماً وَلَا دَمًا (٤٣)
وقد عالج ابن المقفع هذا الموضوع في
كتابه "الأدب الكبير"، حيث يقول:
"اجعل غاية تشبثك في مؤاخاة من

تؤاخي، ومواصلة من تواصل، توطين نفسك على أنه لا سبيل إلى قطع أخيك، وإن ظهر لك منه ما تكره. فإنه ليس كالمملوك تعتقه متى شئت، أو كالمرأة التي تطلقها، إذا شئت، ولكنه عرضك، ومروعتك، فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخذانه^(٤٤).

أما الجاحظ، فقد كتب في رسالة "المعاد والمعاش" يقول: "... فإذا صفا لك أخ، فكن به أشد ضناً منك بنفائس أموالك، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقاً، أو خلقين تكرهما، فإن نفسك التي هي أخص النفوس بك، لا تعطيك المقادة في كل ما تريد، فكيف بنفس غيرك"^(٤٥).

١٢- الإنسان كثير التلون:

يرى إخوان الصفا أن الناس كثيراً ما يتغيرون، بتغير أحوالهم، فيصير المتواضع منهم مغروراً، والمؤمن كافراً، وينسى الوضيع أصله، ويتفرعن الخسيس عندما تصبح مصائر الناس في يديه، إلى آخر ما يحدث لعادات الناس وأخلاقهم من تحول وتغيير،

غالبًا ما يكون إلى الأسوأ. وينبغي أن نفرّق هنا بين ما يحدث للناس من تغيرات كبيرة، فينقلون من الصفة إلى عكسها، وما يحدث لأمزجتهم من الشعور بالرضى أحياناً، وبالسخط أحياناً أخرى، أو الإحساس بالسعادة، ثم الحزن، فهذه أشياء طبيعية، داخلية في صميم النفس الإنسانية. ولهذا السبب قال انكساغورس: "كيف تريد من صديقك خلقاً واحداً، وهو ذو طبائع أربع (= الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة)؟"^(٤٦).

ولعل أطف ما يمكننا ذكره هنا ما كتبه الخوارزمي (المتوفى سنة ٣٨٣ هجرية) إلى أبي القاسم بن أبي الفرج، كاتب ركن الدولة، لما عُزل، حيث يوضح حال أبي القاسم، قائلاً: "... فلقد ظفرت، فلم تضبط نفسك نشاطاً ... فضقت عن احتمال الفرح، كما عجزت عن احتمال الترحه. فلم توجد يوم سعدك شاكرًا، ولا يوم نحسك صابرًا ..."^(٤٧).

إن أبا القاسم هذا يمثل لنا

١٣- الأصدقاء نفس واحدة في أجساد متفرقة: بالغ إخوان الصفا في وصف ماهية صداقتهم، ومفهوم علاقتهم، فشبهوا صداقتهم بصلة الرحم، واعتبروا أنفسهم نفساً واحدة في أجساد متفرقة، حيث يقولون: "... وذلك أن كل صداقة تكون لسبب ما، فإذا انقطع ذلك السبب، بطلت تلك الصداقة، إلا صداقة إخوان الصفا. فإن صداقتهم قرابة رحم، ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض، ويرث بعضهم بعضاً، وذلك أنهم يرون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة..." (٥٠)

والرحم كما جاء في "لسان العرب"، هو القرابة، وبينهما رحم، أي قرابة قريبة (٥١). يقول الذهبي في كتاب "الكبائر": "... وفي الصحيحين أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: لا يدخل الجنة قاطع رحم. فمن قطع أقاربه الضعفاء، وهجرهم، وتكبر عليهم، ولم يصلهم ببره وإحسانه، وكان غنياً، وهم فقراء، فهو داخل في هذا

حال الوضعاء والسفهاء من الناس، الذين ينسون أصلهم وأصدقاءهم، بمجرد الوصول إلى السلطة. فلا عجب أن لا يجدوا صبراً، ولا صديقاً، عندما تنبذهم السلطة، وتكشف لهم الدنيا عن أنيابها.

وقد يكون إهمال حقوق الصديق، وعدم مراعاة أصول الصداقة، ناتجين عن غدر متأصل، وخيانة مزمنة في نفس الإنسان. يقول الشاعر:

أرى الغدر ضداً للوفاء، وإنني لأعلم أن الضدَّ ينبو عن الضد (٤٨).
واستشهد الجاحظ في كتابه "المحاسن والأضداد" بشاعر يشكو خيانة الأصدقاء، حيث يقول:
أعلمه الرماية كل يوم

فلما اشتدَّ ساعدهُ رماني
أعلمه الفتوة كل حين
فلما طرَّ شاربه جفاني
أعلمه الرواية كل وقت
فلما صار شاعرها هجاني (٤٩)

الوعيد، محروم عن دخول الجنة، إلا أن يتوب إلى الله عز وجل، ويُحسن إليهم...^(٥٢).

أما عن قول إخوان الصفا: "وذلك أنهم يرون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة"، فقد يكون ذا أصل يوناني. فقد جاء في كتاب "المقتبسات الكبير" باللغة الألمانية قول أرسطو: "الصدّاقة نفس واحدة في جسدين متفرقين" (=Freundschaft ist eine Seele in zwei Koerper).^(٥٣) ولكن هذا الفرض لا يمكننا إثبات صحته، وعلينا أن نتوخى الحذر والاحتياط في هذا الموضوع، لأن محاولة إرجاع كل شيء قالته العرب إلى أصول أجنبية هي محاولة مرفوضة، فيها الكثير من الإجحاف، والميل إلى نفي صفة الإبداع عن العرب ومفكرهم.

١٤- الخلاصة :

إن معالجة إخوان الصفا لموضوع الصدّاقة، ووصفهم لما يجب أن تكون عليه علاقة الصديق بصديقه، هي

معالجة أصيلة، معبرة عن الكثير من المعاني الحسنة، والأفكار السامية. وهم في ذلك يتفوقون على معاصريهم أبي حيان التوحيدي الذي ألف كتاب "الصدّاقة والصديق"، واتبع فيه أسلوب الجمع والنقل، على غرار ما فعله الجاحظ في كتابه "المحاسن والأضداد". فخلا كتابه من الإبداع والأصالة، على الرغم من كون أبي حيان متشائماً حزيناً، حيث يقول: "وقبل كل شيء، ينبغي أن نثق بأنه لا صديق، ولا مَنْ يتشبه بالصديق"^(٥٤). ومَنْ يقرأ هذا القول، يُبشر نفسه بقراءة كتاب يشرح فيه كاتبه مذهبه وعقيدته، وسر حزنه وتشاومه، ولكنّ أبا حيان لم يفعل هذا، وفضل أن يكون ناقلًا لأقوال الآخرين في الصدّاقة، حافظًا لما ذكروه في الصديق وصفاته.

وإذا قارنا ما كتبه الإخوان في الصدّاقة بما ذكره ابن المقفع عن هذا الموضوع في كتابه "الأدب الكبير"، للاحظنا أن ما جاء به إخوان الصفا، وسجلوه في هذا الباب، أكثر أصالة

الديني، واعتقاداتهم الفلسفية، وقولهم
بأن الدين للمرضى، والفلسفة
للأصحاء، فإن مقالهم في الصداقة،
ومذهبهم في التآلف والمصاحبة،
يعتبران من أفضل ما قيل في الأدب
العربي في هذا الباب، بل إنهما من
أجمل ما تركه لنا الأولون، وخلفه لنا
المتقدمون.

وإبداعاً مما كتبه ابن المقفع الذي
يعترف أنه قد أخذ كتابه السالف الذكر
من أقوال المتقدمين^(٥٥).

أصالة إخوان الصفا إذن
تبدو واضحة جلية، عندما نقابلها
بكتابات أخرى لا أصالة فيها، ولا
إبداع.
وبصرف النظر عن مذهبهم

الهوامش

- (١) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت، د.ت.، ص ٥٨.
- (٢) نفسه، ص ٥٩.
- (٣) رسائل إخوان الصفا، الجزء الأول، دار بيروت، بيروت ١٩٨٣، ص ١٠.
- (٤) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، المجلد الأول، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٨، ص ٦٥١.
- (٥) أحمد أمين، ظهر الإسلام، الجزء الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩، ص ١٥١.
- (٦) يوحنا قمير، إخوان الصفا، دار المشرق، بيروت ١٩٦٨، ص ١٨-١٩.
- (٧) الشهرستاني، الملل والنحل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٧، ص ١٧٩.
- (٨) هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت ١٩٦٦، ص ٢١٠.
- (٩) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥، ص ٣٩٠.
- (١٠) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي ريّدة، القاهرة د.ت. ص ١١٣.
- (١١) ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٤، ص ١٨٣.
- (١٢) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ٢، ص ١٦٦.
- (١٣) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٦٠.
- (١٤) نفسه، ص ٦٠.
- (١٥) W. M. Watt, und M. Marmura, Der Islam II, Kohlhammer, Stuttgart 1985, Seite 458.
- (١٦) رسائل إخوان الصفا، الجزء الرابع، ص ١٨٠.
- (١٧) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج ٢، دار الكتاب العربي،

- القاهرة ١٩٣٤، ص ١٧٤-١٧٥.
- (٢٩) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصدق، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٧٢، ص ٤٣.
- (٣٠) نفسه، ص ٦٥.
- (٣١) نفسه، ص ٦٥.
- (٣٢) رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ٤٤-٤٥.
- (٣٣) ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، دار صادر، بيروت د.ت.، ص ١٠٨.
- (٣٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ١، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٩، ص ١٢٢.
- (٣٥) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصدق، ص ٦٦.
- (٣٦) رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ٤٧.
- (٣٧) نفسه، ص ٤٥.
- (٣٨) نفسه، ص ٤٥.
- (٣٩) مجموعة من المؤلفين، في قواعد اللغة العربية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٩.
- (٤٠) أبو حيان التوحيدي، الصداقة
- (١٨) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩، ص ٩٣.
- (١٩) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ٢، ص ١٤٨-١٤٩.
- (٢٠) رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ٤١.
- (٢١) نفسه، ص ٤٣.
- (٢٢) نفسه، ص ٤٦-٤٧.
- (٢٣) ابن نباتة المصري، سرح العيون، مكتبة محمد علي، الأزهر، القاهرة ١٢٧٨ هجرية، ص ١٦٢.
- (٢٤) البيهقي، المحاسن والأضداد، دار صادر، بيروت ١٩٧٠، ص ١٨٨.
- (٢٥) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩، ص ٢١٣.
- (٢٦) نفسه، ص ٢١٣.
- (٢٧) رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ٤٧.
- (٢٨) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ليدن ١٨٩٨، ص ٦١.

- والصديق، ص ٢٣. (٤٩) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٦٣.
- (٤١) نفسه، ص ٤٦. (٥٠) رسائل إخوان الصفا، ج ٤، ص ٤٨.
- (٤٢) نفسه، ص ٤٧. (٤٣) نفسه، ص ٢٣.
- (٤٤) ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، ص ١٠٤. (٥١) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ص ١٦١٤.
- (٤٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ١، ص ١٢٢. (٥٢) الذهبي، الكبائر، دار عمر بن الخطاب، الإسكندرية، د.ت.، ص ٣٦.
- (٤٦) أبو حيان التوحيدى، الصدّاقة والصديق، ص ٧١. (٥٣) Grosses Zitatenbuch, Compact Verlag, Muenchen 1984, Seite 720 .
- (٤٧) الخوارزمي، رسائل الخوارزمي، المطبعة العثمانية، ١٣١٢ هجرية، أرقام الصفحات غير واضحة! (٥٤) أبو حيان التوحيدى، الصدّاقة والصديق، ص ١٠.
- (٤٨) أبو حيان التوحيدى، الصدّاقة والصديق، ص ٦٤. (٥٥) ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، ص ٦.